على ان بعض دعاة النصرانيَّة في بلاد الحبشة كانوا سريانيّي النحلة واللهجة. ولا يزالون حتى اليوم يستعملون في قدّاسهم ليترجيَّة يعقوب السروجي السرياني فضلًا عن صلوات سريانيَّة كثيرة ترجموها وألحقوها بليترجيَّاتهم. كما ان القبط ايضاً ظلوا يترنّمون في كنائسهم عند خاتمة صلاة المساء بالطلبة السريانيَّة التي بدؤها هذا مجمد مجمد مجمد ماوحل وتوسعدمو مع التريساجيون واضافتهم «يا من صُلبتَ لاجلنا»

فهل من دليل أوضح على مشاركة السريان والاقباط في طقوسهم البيعيَّة وعوائدهم الدينيَّة وعلى اتّفاق الطائفتين واتّحادهما

(لهُ بقيَّة)

بيروت

تاريخها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الباب الحادي عشر

تجارة بيروت وصناعتها في ايّام الرومان

غنيٌّ عن البيان ان بيروت من اصلح مدن فينيقية للمعاملات التجاريَّة لحسن موقعها على شاطئ البحر متوسّطةً بين فلسطين وقيليقية مجاورة لسوريَّة المجرَّفة اي البقاع وللاقطار الحلبيَّة وهي فُرضة دمشق وبازاء قبرس ليست بعيدة عن وادي النيل. فقد ادرك القدماء ما لهذه الخواصّ من المنافع الاقتصاديَّة الجمَّة. على انَّها لم تبلغ قطّ من رواج تجارتها ما افادتهُ في عهد الرومان

فلما بسطت رومية ظلّ رعايتها على بيروت جعل عمّالها ينشطون اهلها في تعزيز متاجراتهم . وقرّبوا لهم الامر بجلب المياه الجبليّة وفتح الطرق بينها وبين البلاد المحيطة بها . وبقايا تلك المشروعات لا تزال ظاهرة حتى يومنا على ساحل البحر وفي جهات لبنان والبقاع . فذلك ما جعل بيروت في مقدّمة مدن فينيقية كما صرّح بالامر أميان مرسّلان في تاريخه (١ حيث يقول : « انّ اجلّ مدن فينيقيـة بيروت وصور وصيدا » وبعد اطرائه لمدارس بيروت وسبقها في تعليم الفقه يردف قائلًا : « انّ الترفه ورغد العيش ومجالي الأبهة كل ذلك غالبٌ على بيروت »

واخبر صاحب وصف البلدان القُفّل (Anon. Orbis descriptio, 25) انّ منسوجات بيروت من الصوف والكتّان كانت مشهورة في كلّ الاصقاع . وفي ايّام ملوك الروم وخصوصاً في عهد يوستنيان ، صارت بيروت مركزًا لتجارة الحرير والاشغال الحريريّة (٢ ولم يعارض بيروت في ذلك سوى مدينة صور

وقد ذُكر في الكتابات اليونانيّـة (CIG. n° 5842) احدُ البيروتيين كبائع الحرير (sericarius) . ووُصف غيرهم بالصبّاغين ما يدلّ على وجود الصباغات في بيروت لصبغ الارجوان والاقمشة

وكانت المعاملات التجاريّة في عهد الرومان متواصلةً بين سواحل الشام وبلاد ايطالية وغاليـة فكانت محصولات سوريّة تُعرض في اسواق تلك البلاد وكان للسوريين شركاء يسكنون هناك لترويج بضائعهم وعُملاء ينقلون محصولات الغرب الى انحاء الشام . وقد وقف الاثريّون على عدّة كتابات جاء فيها اسماء تجّار من فينيقية وسوريّة كانوا يقطنون بلاد الغرب . فمن ذلك كتابة لاتينيّة وجدت في مدينة پوزولة (CIL, X, 1634 Puteoli, Pouzzoles) ورد فيها ذكر تجّار بيروت الساكنين هناك Berytenses qui Puteolis consistunt وذلك في عهد القيصر ترايانوس في اوائل القرن الثاني للمسيح .

ومما يشهد على اتّساع المتجر في بيروت العـدد الوافر من اليهود الـذين كانوا

---

١) اطلب Amm. Marcellin., *Hist.*, *XIV*, n° 8

٢) اخبر بذلك المؤرخ بروكوپيوس في كتابه المعروف بالتاريخ السرّي (Historia Arcana, 25)

يتعاطون فيها التجارة في عهد الرومان يدلّ على ذلك كتابات مدفنيّة وجدت في المدينة لاهل مذهبهم

وكذلك اشتهرت بيروت بخصبها ووفرة غلّات أرباضها وقد اتّسع في ذلك الشاعر نونس في كتاب الديونيسيّات (١ فوصفها باوصاف قلّ ما وُصفت بها مدينة غيرها وهو يدعوها « بِرُوَيه » وينعتها « بملكة الحياة وظئر المدن وفخر الملوك ومَعْهد إلهة العدل وسُور الفقهاء ومركز السرور ونجم لبنان» ويطري كرومها التي تكسو رُباها بثوب سندسيّ يروق للعين وتُعصر من ثمارها «خمرة الإله بخوس» . وقد امتدح ايضاً بلينيوس الطبيعيّ (٢ عِنَبها اللذيذ وخمرتها الطيّبة (Berytia vina) . وكذلك وصف الشاعر العربيّ خمر بيروت وقراها فقال :

وسَبِيئَةٍ من قِرَى بيروتَ صافيةٍ . عَذْرَاءَ قد سُبيت من ارض بيسانِ

ولا رَيب في اغتناء بيروت بزيتها مع ما يُرى من كثرة اشجار زيتونها وآثار معاصرها القديمة

وقد ساعد على زهوها ونموّ غلّاتها ووفرة بقولها وبُسوق نخلها واشجارها ابتناء الرومان لتلك القنيّ المحكمة التي كانت تأتي بالمياه اللبنانيّة الصافية الى بيروت بعضها من نهرها ماغوراس والبعض الآخر من نبع العرعار فوق قرية بعبدات من مقاطعة المتن الشمالي . ولم تزل آثار تلك القنيّ باقية الى عهدنا . فعند نبع العرعار قبو وبقايا حَوْض وقنيّ تشهد على ذلك . ثمّ يمكن الاستدلال على القني المذكورة في انحاء ممرّها في الرُّوَيسة قريباً من بعبدات . وفي القشى شرقيها قريباً من طريق العجلات ثم في الرصيف شرقيّ قرية برمّانا ثمّ بينها وبين بيت مري في المكان المعروف بحصرة الحريق حتى تبلغ دير القلعة . وفي تاريخ بيروت لصالح بن يحيى (ص ١١—١٢) ما يؤيد ذلك فانهُ يقول عن تلك القناة انها «من العمائر العجيبة وكانت تجري من مكان يسمّى العَرْعار من ارض كسروان قيد اثني عشر ميلاً» . فبتلك المياه خصبت تربة بيروت حتى توفّرت محصولاتها ونُقلت الى البلاد الاجنبيّة

ومما خُصّت به بيروت منذ الزمن القديم غاباتها . فمنها ما كان يزين جبالها الشرقة

١) اطلب Nonnus : *Dionys., XLI, ed. Didot, p. 343-344*

٢) Pline, HN, V, c. 17

عليها كالارز والشربين. ومنها ما كان يظلّل حدائقها المحيطة بها كالنخل وكان يكثر فيها وكذلك التمر الذي زعموا انّ من اسمه بالعبرانيّة اشتقّت بيروت اسمها كما سبق. ومثلهُ الصنوبر الذي اتّسعت غاباتهُ حول بيروت وورد ذكرهُ في قدماء الكتبة. فانّ الشاعر نونُس مثلاً قد أطنب في القرن الرابع للمسيح في مدح غابات صنوبر بيروت في قصيدتهِ الثانية والاربعين من ديوانهِ المعروف بالديونيسي (Dionysiaca, XLII). وبقيت تلك الغابات الى ايّام العرب فذكرها الشريف الادريسي في جغرافيّتهِ المعنونة بنزهة المشتاق في اخبار الآفاق وذلك في القرن السادس للهجرة والثاني عشر للمسيح حيث قال: «لبيروت غيضةٌ من اشجار الصنوبر سَعَتُها اثنا عشر ميلاً في التكسير تتّصل الى نحو لبنان»

ومما رُوي في تاريخ غليلموس الصوري انّ الصليبيّين لمّا حاولوا محاصرة بيروت عمدوا الى اخشاب غاباتها فجهّزوا منها المجانيق والادوات الحربية. وقد ورد ايضاً في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى (ص ٥١—٥٢) ما صنع الامير الكبير يَلْبُغا العُمَري في محرّم من السنة ٧٦٧ (١٣٦٥م) اذ «أمرَ سيف الدين بيدُمر الخوارزمي بالتوجه الى بيروت ليعتمر من غاباتها مراكب كثيرة حمّالات وشوانيَ لفتح قبرس» قال: «فحضر الى بيروت وأحضر صنّاعاً كثيرين من سائر الممالك فكانوا جمًّا غفيراً وقيل انهُ لم يُعهد قطّ عمارةٌ مثالها عظماً وسرعةً وكثرةَ صنّاع وقوّةَ عزم. وعمّر بيدمر بظاهر بيروت مسطبةً وعُرفت به الى الآن وكانت المراكب تُعمَل بها على بُعد من البحر» ثمّ ذكر ما صُرف عليها من المال الكثير الذي ذهب سدًى لوفاة الامير يَلْبُغا

وامّا كثرة ما قُطع من تلك الاشجار لابتناء السفن كاد يُتلفها. فانّ احد السيّاح الالمانيين ذكر سنة ١٤١١ انّ سعة غابات بيروت ميلانِ فقط. ومن المعلوم انّ هذه الغابات تُنسب حتى يومنا الى الامير فخر الدين وانّما هو اهتمّ فقط بتجديدها وتوسيعها. وما يُرى منها الى اليوم بقايا تلك الغابات الشهيرة وهي كافية لتبيّن لنا إعجاب القدماء بمحاسنها ومنافعها حتى انّ الشاعر لامرتين الفرنسوي في اواسط القرن الماضي اشاد في ذكرها بل بالغ في وصفها حتى نُسب الى الغلوّ والتطرُّف

وكذلك كان البيروتيّون يتاجرون بالمعادن التي كانوا يستخرجونها من لبنان اخصُّها النحاس والحديد. امّا النحاس الذي تكرّر ذكرهُ كاحد معادن لبنان في

الكتابات المصرية والاشورية فانهُ قد أصبح اليوم اثرًا بعد عين امّا لنفودهِ من لبنان وامّا لمتاجرة الفينيقيين بهِ قديمًا ثم عُدولهم عن جلبهِ. امّا الحديد فشاع مدّة اجيالٍ طويلة استخراجهُ من مناجم بيروت حتى انّ قدماء المصريين دعوا الحديد باسم «با ان بَرْت» اي «معدن بيروت»

ولدينا في كتب جغرافيّي العرب وسيّاحهم عدّة شواهد تثبت استخراج الحديد من مناجم بيروت. فمن ذلك ما جاء في كتاب المقدسيّ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ص ١٨٤) انّ «معادن الحديد في جبال بيروت». وقد ذكرهُ من بعدهِ الشريف الادريسي فقال: «وبقربة من بيروت جبل فيهِ معدن حديد طيّب جيّد القطع يُستخرج منهُ الكثير ويُحمل الى بلاد الشام» ومثلها ما قالهُ ابن بطوطة في رحلتهِ (١: ١٣٣ من الطبعة الباريسية): «وسرنا الى مدينة بيروت وهي صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن. وتُجلَب منها الى الديار المصرية الفواكه والحديد» فجمع ابن بطوطة بين مواليد بيروت النباتيّة ومرافقها المدنيّة. ذلك فضلًا عما كانت ترزق بهِ بصيد الاسماك وتستخرجهُ من الاصداف البحريّة لصبغ الأرجوان كصور وصيداء.

فبكل هذه المحصولات مع حسن موقع المدينة وصفاء جوّها وكثرة خيراتها اوقفت بيروت انظار اوغسطوس قيصر فخوّلها امتياز المستعمرات ونعتها بالسعيدة ودعاها باسم ابنتهِ جوليا مشعرًا باسم عمهِ يوليوس قيصر ومضيفًا اليها اسمهُ الشخصيّ اوغسطوس كما سبق. وعلى هذه الصورة ضربت النقود البيروتية الى اواخر القرن الثالث. وكثيرًا ما كانوا يصوّرون على تلك النقود جنديًا يفلح الارض لان اوغسطوس قيصر كان اقطع كثيرًا من املاكها جنودهُ الذين نصروهُ في واقعة اكسيوم

وقد بيّن حضرة الاب لامنس في كتابهِ تسريح الابصار (١: ٢٧) ما نالتهُ بيروت بارتقائها الى رتبة مستعمرة رومانية من الامتيازات الخاصّة منها معافاة اهلها عن دفع الجزية. ومنها استقلالها النوعي اذ لم يَمُد يحكم عليها ولاة رومانيُّون بل اضحت كدولة صغيرة في ضمن الاملاك الرومانيّة في الشرق تتصرّف باحكامها كالعاصمة نفسها. وانّما كان يُعنى بسياستها حاكمان (duumvirs) اليها يفوّض تدبير

الامور لها الحلّ والعقد والامر والنهي كقناصل رومية المختارين لسنة. وكان للمدينة دار ندوة يجلس فيه للبحث عن صوالح العموم مئة من رؤساء الاعشار (décurions). وكان لبيروت كما لرومية ساحة كبيرة (Forum) يجتمع فيها جمهور الاهلين فيسمعون خطب الرؤساء ويقفون على تقارير المندوبين وكانوا يختارون وحدهم ولاتهم وحكّامهم دون ان يتداخل عمّال رومية في شؤونهم إلّا اذا ثارت بينهم الفتن وافترقت كلمة السكان بالشغب

فكل هذه الامتيازات الفريدة زادت في سمعة بيروت ووسّعت نطاق معاملاتها ولعلّ معظم الآثار التي تُرى الى اليوم في جهاتها او تُستخرج بالحفريّات متّصلة بالعهد الروماني والبوزنطي لاسيما النواويس الحجريّة او الرصاصيّة التي وُجدت في شرقيّ المدينة وغربيّها على بعضها كتابات يونانيّة ولاتينيّة

وبعض هذه الآثار من بقايا قصور او عمائر لذوي الثروة واليها اشار صالح في تاريخه حيث يقول :

« ومما يدلّ على كبر بيروت وسعتها ما يجد الناس في الحدائق بظاهرها من الرخام وآثار الدور القديمة ما طولهُ قريب من ميلين اوّلهُ مكان يسمّى بُلَيْدة وذو قية غربي البلد [illegible] واما مقاربو النهر شرقيّ البلد فانما عمّروا السور اختصروهُ على القدر الذي هو عليه اليوم »

ومن الثابت انّ كثبان الرمل التي تمتدّ اليوم في غربيّها وجنوبيها لم تكن في عهد الرومان قد سبّخت بكثرتها تلك الجهات لِما اعتادهُ الرومان من تشجير البلاد ونَصْب الغابات التي هي اصلحُ السدود في وجه الرمال البحريّة فضلًا عن منافعها الصحّية والاقتصاديّة. وكانت بيروت تزدهي ببعض الجُزُر الصغيرة المجاورة لها والتي يشير اليها في القرن الرابع نونُس الشاعر (Dionys., XLI. fin) حتى وصف بيروت بالمدينة المزدانة بالجزر (εὔνησος) وقد ثبتت بعض هذه الجزائر الى القرون الوسطى اذ نسفتها الزلازل(١

فهذا بعض ما اوقفتنا عليه الآثار عن احوال بيروت وتجارتها وصناعتها في عهد الرومان وملوك بوزنطية الروم قبل حدوث تلك الزلازل التي كادت تقضي على بيروت في القرن السادس (لها بقية)

١) اطلب تسريح الابصار (٣ : ١٨)